التحليل النفسي للظاهرة الدينية

Psychoanalysis of the religious phenomenon

إيمان ملال

جامعة عباس لغرور خنشلة

(الجزائر)

imenmellel@gmail.com

ملخص:

إن التدين هو ذلك التقمص من الفرد والجماعة للدين في مستواه الطقوسي، وما يمكن أن يكون طريقة فهم الفرد للدين وكيفية التزامه العملي به، من هنا اعتبر علماء النفس الدين نمط سلوكي وأسلوب حياة ،هدفه التمسك والالتزام بأفكار المعتقد الديني وتعاليمه تجاه الخالق والمجتمع ،وقد اخترت عالم النفس **سيغموند فرويد** في مقاربته العلمية للظاهرة الدينية من خلال دراساته النفسية الدينية والتي يري من خلالها أن الدين يعبر عن نفسه أولا بواسطة الرموز ،ويحدث أن لا يعود لهذه الرموز تأثير يذكر على الواقع النفسي للفرد .فقدرة هذه الرموز على التفسير لم تعد عملية إجرائية ،إذ يحدث فجوة كبيرة بين الواقع واللاشعور الفردي وبين الرموز الدينية التي لم تعد لها سلطة حتى وان ظلت تتمتع بسمعة ما، خاصة وان فرويد من الذين اكدوا أن الدين ما هو إلا مرض نفسي ويفسر نشأة الأديان بأعراض نفسية خالصة

كلمات مفتاحية علم النفس، سيغموند فرويد، لظاهرة الدينية، الرمز الديني.

Abstract

Religiosity is the reincarnation of the individual and the group of religion in its ritual level, and what could be the way an individual understands religion and how he practically adheres to it. Hence, psychologists consider religion a behavioral and lifestyle pattern whose goal is to adhere to the ideas and teachings of religious belief towards the Creator and society. I chose the Austrian psychologist Sigmund Freud in his scientific approach to the religious phenomenon through his religious psychological studies, in which he sees that religion expresses itself, first by means of symbols, and it happens that the symbols have little influence on the psychological reality of the individual. The ability of these symbols to interpret is no longer a procedural process, as there is a big gap between reality and the individual subconscious and between religious symbols that no longer have authority even if they still have some power. Especially since Freud asserted that religion is nothing but a psychological disease. And explains the genesis of religions purely psychological symptoms

Keywords: Psychology, Sigmund Freud, Religious phenomenon, Religious symbol.

مقدمة

علم نفس الدين فرع من فروع علم النفس، يتطرق إلى دراسة الدين دراسة علمية بمنظار سيكولوجي، بعبارة أخرى علم النفس الدينـي يسعى إلى استخدام قواعد سيغموند فرويد الناجمة عن الدراسة العامة للسلوك، ، ليتمكن من تفسيره وتوضيحه، أما القضايا والمسائل التي تتم دراستها فهي: ما هو مصدر الدين؟ هل للأشخاص المتدينين شخصية خاصة؟ هل يبحث الدين على المزيد من الرضى عن الحياة لدى الأفراد، وهل يضمن لهم نجاحا أكبر في الزواج والعمل؟ وهل يتمتع المتدينون بحياة جسدية ونفسية أكبر وغير ذلك من الأسئلة،[1] يضيف **فرويد** قائلا في هذا المقام: "ترتيبا عليه لا مفر لنا من استبدال السؤال السابق بهذا السؤال المغاير الأقل طموحا وادعاء: ما المقاصد والمرامي الحيوية التي ينم عنها البشر سلوكهم؟ ماذا يطلبون من الحياة وإلام يرسون فرويد؟".[2]

1- علم النفس الدينـي من منظور فرويد

يتقاطع الدين والوهم في المنظومة الفكرية النفسية الفرويدية، ويعبر أحدهما عن الآخر تعبيرا يكاد يكون دلالة على تطابقهما في عمق هذا الوهم، يكون الإنسان في أرفع تجليات إيمانه بالدين، وما دام الأمر هنا يتعلق بمخاوف ومعتقدات رسخها المسار الخرافي في تاريخ البشرية، فإن التأسيس لحضارة ما هو الا ضرب من العصاب névrose الجماعي الذي يدعى فيه الكل تميزهم عن باقي الحضارات الأخرى.

يعد الرأي الذي قدمه **سيغموند فرويد** (ضربة) قاسية للتصورات الكلاسيكية للدين، حيث أنه ببحثه في الطوطم وعلاقته بالحرام يكون قد بدأ في بلورة تصوره الذي يقوم على التصدي إلى الدين وإطلاق العنان لسلطة العقل، كما بين ذلك في أهم كتبه "مستقبل ووهم" الذي يؤكد فيه أن سلطة العقل فوق سلطة الدين، وأن هذا الأخير ما هو إلا وهم لازم البشرية منذ بداياتها الأولى، يقول في ذلك: "إذا كان المتشككون المحنكون يقرون هم أنفسهم بأن التوكيدات الدينية لا سبيل إلى دحضها وتفنيدها بواسطة العقل، فلماذا لا يجوز لي أن أؤمن بها ما دامت حجج كثيرة تؤيدها، التقاليد، قبول الناس بها على عمومهم، وكل ما ينطوي عليه من عزاء للنفس".[3]

يؤكد **فرويد** أن اتخاذ موقف مع أو ضد قيمة المذاهب الأدبية من حيث الصحة والحقيقة لا يدخل في نطاق هذه الدراسة، يكفي أنه اقتنع وأقنع جمهوره بوهم طبيعتها السيكولوجية، إذ يرى أن الدين ينبع من عجز الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة في الخارج، والقوى الغريزية داخل نفسه، وينشأ الدين في مرحلة مبكرة من التطور الإنساني عندما لم يكن الإنسان يستطيع أن يستخدم عقله بعد في التصدي لهذه القوى الخارجية والداخلية ولا يجد مفرا من كبتها، أو التحايل عليها مستعينا بقوى عاطفية أخرى. وهكذا بدلا من التعامل مع هذه القوى عن طريق العقل يتعامل معها "بعواطف مضادة".[4] بقوة وجدانية أخرى، تكون وظيفتها هي الكبت أو التحكم فيما يعجز عن التعامل معه عقلانيا.

ينمي الإنسان في هذه العملية ما يطلق عليه **فرويد** اسم الوهم، وهذا الأخير يؤخذ مادته من تجربته الفردية الخاصة عندما كان طفلا –وهي أهم مرحلة ركز عليها **فرويد** في أبحاثه- إذ يتذكر الإنسان تجربة ما قد مر بها وهو طفل، حينما كان يشعر أن أباه يحميه، أباه الذي يعتقد أنه أوتي حكمة عالية، وقوة، وهو يستطيع أن يكسب حبه وحمايته بإطاعة أوامره، وتجنب نواهيه "يكون الدين في رأي فرويد تكرار لتجربة الطفل ويتعامل الإنسان مع القوى المهددة له بنفس الطريقة التي تعلم بها وهو طفل وذلك بالاعتماد على والد يعجب به ويخافه".[5]

عبر **دروكايم** عن هذا الطرح بتلك الثنائيات التي تعتبر أساس أية ظاهرة أو شعور دينيين، من قبيل "الحلال والحرام"، و"الثواب والعقاب" وغيرها من المتقابلات الأخرى والتي توحي من منظور **مرسيا إلياد** Mircea Eliade برغبة الإنسان المتدين بالعيش في المقدس (الزمان والمكان المقدسين Le désire de l'homme religieux de vivre dans le sacre).[6] أي أن المبدأ الذي قام عليه فكر **فرويد** هو تحصيل أكبر قدر من اللذة وجعل الألم أقل. ومن خلال هذا التصور بنى مبدأ

جديد كل الجدة عن الدين، وعن من يدعون التدين، وسنلخص أهم أفكاره المنافسة للدين فيما يلي:

1- يتناول **فرويد** المصاعب والمشاق التي تنغص على الإنسان راحته وصحته النفسية، يقول في ذلك "إن حياتنا، كما هي مفروضة علينا، ثقيلة الوطء، وتغل أعناقنا بكثرة كثيرة من المشاق والخيبات والمهام وحتى نستطيع لها احتمالا، فلا غنى لنا عن المسكنات... ولعل المسكنات على أنواع ثلاثة هي:

* إلهيات قوية تتيح لنا أن نعتبر بؤسنا هينا أمره.
* إشباعات بديلة تخفض من وطأته.
* مخدرات تفقدنا الإحساس به وليس لنا عن واحدة على القل من هذه الوسائل غناء.[7]

2- يرى **فرويد** أن الدين هذيان وأنه يشوه الواقع ويزجر العقل ولا يحقق السعادة التي يعيشها الإنسان، يقول في ذلك: "إن الدين يضر بلعبة التكيف والانتخاب تلك، إذ يفرض على الجميع، وعلى نسق واحد، طرقه الخاصة للوصول إلى السعادة والفوز بالمناعة ضد الألم. وتقوم خطته على تخفيض قيمة الحياة وعلى تشويه صورة العالم الواقعي تشويها بالغا. وهذا نهج يتخذ مسلمه له زجر العقل وتخويفه، وبهذا الثمن يفلح الدين".[8]

3- تعود جذور الدين حسب **فرويد** إلى ضعف الإنسان وتبعيته الأصلية للأب، وفي الرغبات المكبوتة لتلبية الحاجات الطفولية التي تتجلى بصورة الله، فنحن قد تعلمنا من خلال تعلقنا القلبي بالله والخضوع له، والتضرع إليه سواء كان الله الأب القادر الرحيم أو الآلهة المتهددة –في النظم الإيمانية، أن نتخلص من وحشية الدنيا المخيفة. فللآلهة وقوانينها سلطة وسيطرة على العالم. لكن البشر تركوا وحدهم للدفاع عن أنفسهم في مواجهة القوى التي ترسم مصائرهم.[9]

4- آخر مؤلفات **فرويد** عن الدين كتابه "موسى والتوحيد" الذي كتبه في أواخر عمره، ليعود فيه إلى موضوعات كان قد شرحها في كتاب "الطوطم والحرام"، يقول فيه أن موسى هو في الحقيقة أمير مصري كان يعيش في قصر الفرعون الذي تولى الحكم حوالي العام 5731 قبل الميلاد، واهتدي إلى مصطلحات دينية لافتة مثل العبادة التوحيدية لإله اسمه آتين Aten، ثم نقل موسى هذه النظرية الدينية إلى العبرانيين، من خلال عبارة الإله يهوه، لكن اليهود الذين لم يستطيعوا تحمل هذا الدين الروحاني المعنوي والمقيد لهم، ثاروا على هذا النبي الذي كان يريد أن يعرض هذا الأمر عليهم، وقتلوه، بعد ذلك أدرك اليهود أنهم بحاجة إلى الوحدة القبلية والدين الجامع المشترك، فعادوا إلى الدين نفسه، الذي قتلوا النبي الذي بشر به، وإلى عبادة الله الواحد الجبار، وجاء وقت ندم فيه الشعب على قتل موسى وسعى إلى نسيان هذه.[10]

2- فرويد وحربه على الدين والقيم

ليست الإباحية الجنسية فقط هي الفكرة الوحيدة التي كان يعتمد عليها **فرويد** في تحليلاته ويسعى لنشرها، بل كان يكافح ضد كل القيود والأوامر الدينية والإلهية الموجهة للنفس البشرية فيعتبر الدين مرضا نفسيا، فالعقائد الدينية في نظره أوهام لا دليل عليها، وهي تقارن بالهذيان، وقد كان **فرويد** يتظاهر بالإلحاد ليعطي تفكيره روحا علمانية فيسهل انتشاره وتقبله، لكن الحقيقة أنه كان غارقا في يهوديته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، يقول في كتابه:

من يملك العلم والفن.

يملك أيضا الدين.

فهل يمكن أن يكون صاحب دين.

من كان خالي الوفض من الاثنين.[11]

هذه فلسفة **فرويد** حول الدين والمتدين معا، ويرى في ذلك العديد من الباحثين أن النواة التي تشكل الجماعة البشرية هي الدين، بل ويذهب الكثير منهم إلى تأكيد "أن الإنسان حيوان متدين"،[12] في ظل ما قدمه **فرويد** حول الظاهرة الدينية وفلسفة الدين، وبه قد أضاف الجديد إلى فلسفة الدين، التي أصبحت تدرسه من زاوية الحالة النفسية أو التكوين النفسي.

من أبرز القضايا التي اهتم بها **فرويد** حول مسألة الدين، ما يعرف بالطوطم وعلاقته ببنية الجهاز النفسي لدى الإنسان، والتنقيب عن الأصول الأولى للدين، خاصة الدين الطوطمي الذي كشف **فرويد** من خلاله على العديد من الأسرار الغامضة في الإنسان على سبيل المثال، مرحلة الطفولة التي كانت مبهمة

المعاني، والتي وضحها **فرويد** على أنها من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان، وتعد من بين المراحل نشأة الظاهرة الدينية التي تفسر الدين الطوطمي كشكل من أشكال الديانات التي ظهرت جراء تطور الظاهرة الدينية، ومن هنا وجب التساؤل حول ما الذي يقصده **فرويد** بمفهوم الطوطم؟ وكيف نشا الدين عند المجتمعات البدائية؟ وما الذي قدمه التحليل النفسي لهذه المفهوم؟

3- مفهوم الطوطم Totémisme

هي ديانة مركبة من الأفكار والطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية أو موضوع طبيعي يسمى الطوطم، والطوطم يمكن أن يكون طائرا أو حيوانا أو نباتا أو ظاهرة طبيعية أو مظهرا طبيعيا مع اعتقاد الجماعة بالارتباط به روحيا.

يقول **فرويد** الطوطم هو ما يعوض الدين في القبائل البدائية، فهو مرحلة تمهيدية ينتقل فيها تاريخ البشر من المرحلة البدائية إلى المرحلة الوحشية ثم إلى مرحلة "الدين أو الأبطال أو الآلهة، فالطوطمية خلقت دستورا ينظمها ويحكمها ووضعت له بنودا وقوانين لا يمكن تجاوزها".[13] ومن أمثلة هذه القواعد والقوانين نذكر:

- تحريم أكل بعض لحوم الحيوانات المقدسة.
- تسمية البعض منها بأسماء الحيوانات الطوطمية المقدسة.

من خلال هذه التقسيمات تظهر القيمة التي كان يحظى بها الطوطم وهذا ما يجعله محط احترام داخل العشيرة، وهذا ما بيّنه **فرويد** من خلال التحليل الذي قام به، فالطوطم يمثل الأب بسبب تحريم قتله والأكل من لحمه والخوف من العقاب والغضب الذي قد ينزله الطوطم على أفراد العشيرة. ففي القبائل البدائية إذا تم ذبح الطوطم من طرف أفراد القبيلة، فإن هذا الذبح يسبقه حزن شديد يكون الغرض منه التكفير عن ذلك الذنب، فعند ذبحهم لهذا الطوطم يشربون من دمه و يأكلون من لحمه معتقدين تقاسم تلك القوة التي كان يتحلى بها في حياته، إضافة إلى اعتقادهم الحياة المقدسة التي يمثلها.

فرغم هذا الخوف والحداد الذي يشعرون به، يبدأ النصف الثاني من الوليمة بإفساح المجال أمام الغرائز المكبوتة، وهذا ما أقره **فرويد** من خلال قوله: "لكن الحداد لا يلبث أن يعقبه احتفال صاخب ومرح تنفلت فيه جميع الغرائز من عقلها وفسح فيها المجال أمام شتى ضروب الإشباع".[14] وهذا الإحساس راجع بالأساس إلى العقدة الأبوية التي نشأت بسبب كره الأبناء للأب الذي كان يعارض حاجتهم إلى القوة، ويقف في سبيل متطلباتهم الجنسية، ولكنهم رغم ذلك يحبونه ويعجبون به، ولما كانت ذكرى قتل الأب لم تفارق أذهانهم، فقد اصطنعوا لأنفسهم حيوانا اعتقدوا روح أبيهم حلت فيه، وبدأوا يقدسونه ويقيمون له الطقوس ويحتفلون به موسميا فيما يسمى بـ(الوليمة الطوطمية)، حيث يعيدون افتراس الأب في شكل الحيوان الطوطم، إلا أنه حسب الأسطورة التي درسها **فرويد** من أجل البحث عن نشأة الدين، فقد ذاق الأبناء ذرعا من الأب، وكنتيجة لذلك اجتمعوا وتحالفوا على قتل الأب الذكر وهنا بدأ تاريخ الإنسانية عندما قتل الأبناء الأب، وأصبح كل ابن من الأبناء يسعى جاهدا إلى السيطرة على الحكم والاستيلاء على النساء اللواتي كن تحت سطوة الأب المغضوب، وعن هذه الرغبة العارمة في السلطة تولد صراع بين الأبناء.[15] ومن هنا بدأت معالم العقيدة الأوديبية تتضح في أفكار وأعمال **فرويد** التي وجد ضالته في تطبيقها على النصوص الأدبية، ويرى أنها ذات أهمية كبيرة في تطور البشرية كما في تطور الفرد، وننوه هنا إلى أن **فرويد** قد سمح لنفسه عند إعداد الكتاب بمجازفات جريئة وطموحة، وطبق تفكير التحليل النفسي على كثير من مسائل الوجود الإنساني التي كان يهتم بها منذ طفولته.

خلافا **لفرويد** الذي طبق التحليل النفسي على الدين وتوصل إلى أن الدين ظاهرة مرضية، رأى **كارل غوستاف يونغ**(*) أن الدين بعد أساسي من أبعاد العلاج النفسي بخاصة ومن أبعاد الحياة بعامة، فالدين ظاهرة شافية وهو حاجة ضرورية لنمو شخصيته وتساميها، وبعبارة أدق "حالة خاصة بروح الإنسان"،[16] فهي العلاقة التي تربطه بالقيمة الأعلى والأقوى إيجابية كانت أم سلبية، هذه العلاقة التي يمكن أن تكون متعمدة (على نحو واع) أو غير متعمدة (لا واعية).

وتختلف رؤية **يونغ** للتجربة الدينية عن رؤية **فرويد** في كونها لا تجعل التجربة الدينية محصورة في نطاق العقل المجرد (نطاق العلوم التجريبية) فقط، بل هي نظرية تعددية إلى حد ما، أسطورية، رمزية وجوهرية، حيث يرى **يونغ** أنه يمكن مشاهدة الموضوعات الخاصة والمشتركة في أحلام المرضى في عدد من الأديان والأساطير العالمية، وتبعا لذلك فالرؤى تتضمن غالبا لحظات ملاكورتية تثير لدى الفرد الإحساس بالقدسية، ولحظات هذه الرؤيا طريق إلى اللاشعور (الخافية الجامعة).[17]

فمن خلال علاجه لمرضاه، صادف **يونغ** بعض المرضى لديهم أفكار ورؤى غير مستخلصة من تجاربهم اليومية، ولا يمكن تفسيرها، لذا عمد لدراسة رؤاهم والرؤى الواردة في الروايات التاريخية ودراسة الأديان والأساطير.

انطلق **يونغ** في نظريته هذه من المفهوم اللاواعي الفردي وهو نفسه لدى **فرويد** يحوي الذكريات المتقهقرة المكبوتة التي تحول بعضها إلى عقد، والتي عدها **فرويد** مصدر العصاب، فحين عدها **يونغ** مصدر النضج ومنبع النمو الجديد، والتي لجأ إلى تقويمها من خلال تداعي كلمات الله (1918)، كما يرى **يونغ** أن اللاواعي الجمعي كان تحت اللاواعي الفردي، حيث تتميز بقوة عاطفية وتبصر، كما بين **يونغ** أن اللاواعي الجمعي يتضمن الصور الأزلية الأولية التي توافرت كالغرائز (من قبل تاريخ النوع البشري.[18] وهذه النماذج هي الاستعداد والميل لتجريب العالم الخارجي وردة الفعل اتجاهه (على نحو ما فعله الأجداد).

يشبه المثل الأفلاطونية ولا يمكن العرف عليها مباشرة، بل تعرف من خلال النماذج والرموز، وتستمد من الثقافة والتجربة الشخصية، فهي أشكال مجردة تجعلنا مهيئين للاعتقاد ببعض الأفكار والرؤى والأوهام والمعتقدات الدينية والأسطورية والشمولية، وحين ذلك تتشكل مؤثراتها الثقافية والفردية. فمثلا: رؤى (الذهب، الأسد، الملك...) ترمز إلى الشمس، والشمس دليل على القوة، الحياة والصحة، الصفاء، والشمس (في بعض الأديان معبودة) وهي رمز لحقيقة كلية هي مصدر القدرة والطاقة الماورائية.[19]

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن **يونغ** لا يعد اللاوعي الجمعي أمرا وراثيا، ولا يقصد بهذه الفرضية أن التصورات تنتقل عن طريق الوراثة، بل هو مجرد احتمال أن تظهر الأفكار المتماثلة كليا أو المتشابهة مرات عديدة، وهذا الاحتمال أسماه بالأنموذج المثالي (archétype) وهو شرط أو سمة خاصة بالبنية الروحية مرتبط على نحو ما بالدماغ، وهو في نظر **يونغ** يمثل حيز الدين.[20]

وانطلاقا من هذه الفرضيات والتي وضعها **يونغ** حاول التأكد منها من خلال أبحاثه، اتصف منهاجه التحليلي بخاصية دينية –إذا جاز التعبير- فضلا عن ذلك فقد حدد موضع نظريته النفسانية في الخبرة الدينية وفي العلاج النفسي.

ومن هذا المنطلق يرى العديد من الدارسين لأفكاره أنه وجد في الأديان حلا أو علاجا للأنواء والأمراض الروحية للغرب المعاصر، ومن هنا جاء بحثه في التراث الروحي الغربي مفتشا عن نصوص تعطي تفسيرا وحلولا لهذا الاغتراب والانسلاب الذي يعيشه الإنسان المعاصر "ربما لا سبيل أمامنا لإدراك القضايا الدينية اليوم، سوى طريق علم النفس، لذا أنا آخذ الأفكار التي تجمدت على مدار الزمان والتاريخ، وأسعى لأن أذوبها وأعيدها إلى حالتها المائية وأصبها في قوالب التجارب المباشرة، وهذا العمل صعب من دون شك، لأننا نريد أن نوجد ارتباطا واتصالا بين المعتقدات الدينية والتجربة المباشرة للصور المثالية النفسانية، ودراسة الرموز الطبيعية اللاواعية توفر لنا المواد الأولية لهذا العمل... إن الحياة الروحية الأنموذج المثالي التي تظهر على شكل رموز في الرؤى غير مرتبطة بزمان معين على العكس من الحياة الفردية أسيرة الزمان".[21]

لقد توصل **يونغ** من خلال دراسته المعمقة للعلاقة بين علم النفس والدين، إلا أن النصوص القديمة الغامضة أغلبها تلقي ضوء كاشفا غير متوقع على أحلامه وأحلام مرضاه التي تتكرر فيها متجانسة (صورة نموذجية بدئية)، لذا أكد على أن الاطلاع عليها أمر لا غنى عنه للمعالج النفسي.

كما سعى **يونغ** لتطوير فهمه النفساني للخبرة الدينية الغربية وللعلم الغربي، حيث توصل من خلال دراسته واطلاعه العميق إلى تقسيم الثقافة الغربية في تطورها إلى أطوار ثلاثة مبينا

خصائص كل طور: الأول ديني، والثاني علمي، والثالث نفساني وبين أن كل طور منها كان في الواقع استجابة مختلفة للحقيقة الكلية للاوعي الجمعي.[22]

فالعصور الوسطى يكاد يغلب عليها الطابع الديني، واختيار الناس للاوعي الجمعي يتم من خلال صور دينية مثال الله (نموذج الأب)، والكنيسة والسيدة العذراء (نموذج الأم) والمسيح (نموذج الذات)، أما في عصر النهضة والتنوير فساد العلم والعقلانية اللذان قمعا اللاوعي الجمعي والجانب الديني عبر تجلي أكبر (الأنا)، وفي الفترة المعاصرة (مرحلة اكتشاف العلم اللاوعي الجمعي) أصبح العلم والدين في وفاق لا يلغي أي منهما الآخر، بل يعمقه.[23]

وهكذا استطاع **يونغ** من خلال علم النفس التحليلي أن يؤلف بين الدين والعلم تأليفا جديدا، كما تمكن من توضيح وتقديم نفسانيته لمعاصريه كسبيل يتيح لهم أن يكونوا علميين وحداثيين ومتدينين وروحانيين متأصلين بجذورهم التراثية يعيشون حياتهم دون أن يعانوا من ازدواجية داخلية، وهذا تأكيد ودعوة منه على ضرورة تظافر جهود رجال الدين وأطباء النفس للقيم بهذه المهمة الروحية التي ستجعل الإنسان يعيش في راحة نفسية وطمأنينة روحية .[24] حيث يقول **يونغ** في الأعوام الثلاثين الماضية "استشارني أناس من جميع بلدان العالم المتمدن، وعالجت المئات من المرضى، كان أكثرهم بروتستانت وأقلهم يهودا، ولا أكثر من خمسة أو ستة كاثوليك مؤمنين، من بين جميع مرضاي الذين هم في النصف الثاني من العمر –أي ممن يزيدون على الخامسة والثلاثين- لم يكن ولا واحد منهم من كانت مشكلته في نهاية الأمر ليست مشكلة البحث عن نظرة دينية للحياة، لذلك أستطيع القول وأنا مطمئن أن كل واحد من هؤلاء وقع في المرض لأنه أضاع ما تورثه الأديان الحية لأتباعها في كل عصر، ولم يشف إلا واحد منهم شفاء حقيقيا إلا بعد أن استرد نظرته الدينية".[25]

فالدين أقوى العوامل المؤثرة في روحية الفرد، والتدين يؤدي لالتئام جروحه الداخلية والتي تقي من الأمراض النفسية، وبواسطته يتم معالجة أنواع الأذى الروحي والنفسي، وبأفكاره هذه ساهم **يونغ** في دراسة الدين، حيث تركت نظرياته أثرا بليغا على دراسة فلسفة الدين، حيث بين **يونغ** بأن الدين متأصل في الحياة الإنسانية ولا يصح أن يختزل في مركب (جنسي، أبوي) ولا إلى عوامل متعلقة بتطور العلاقات الاقتصادية والوعي الاجتماعي، بل يجب حلها ليسترد الفرد عافيته النفسية.

ومن المحللين النفسانيين الذين اهتموا بعلم النفس والدين أيضا المحلل النفسي الاجتماعي الإنساني **إيريك فروم** الذي يقوم بنهجه الفكري أساسا على دمج المنهج الفرويدي والماركسي، فكما يقول **فروم** الإنسان ليس فقط نزاعات داخلية لا شعورية باطنية. بل إن العامل الاقتصادي والاجتماعي والديني يلعب أيضا دورا كبيرا في تكوين شخصية الإنسان.[26]

استعمل **فروم** التحليل النفسي لغاية فهم آليات التفكير التي تسير وتسيطر على حياة الفرد في المجتمع وتوصل إلى أن الدين واحد من أهم هذه المؤثرات، فركز دراسته على دراسة الظاهرة الدينية كما هي موجودة وأثرها على سلوكيات وحياة الأفراد والمجتمعات، كما أهتم بتأثيرها على المنظومة الأخلاقية للإنسان، انطلاقا من إشكالية أساسية ألا وهي كيف يستطيع المحلل النفسي دراسة الواقع الإنساني خلف الدين والأنظمة الرمزية.

ويعد كتابه "الدين والتحليل النفسي" والذي هو بحث في سيكولوجية الأخلاق من ناحية تأثير الدين عليها خير معلم يوضح أفكاره وآراءه حول علم النفس والدين، حيث يحاول **فروم** التوفيق بين الدين وبين مجال التحليل النفسي الذي يحاول فك رموز الوعي بالإحالة إلى خلفية اللاوعي المحفزة له، مبينا كيف أن وجود الدين ضروري لصحة النفس مثلما مجال التحليل النفسي مفيد لها.

يعرف **فروم** الدين بقوله: "أي مذهب للفكر والعمل، تشترك فيه جماعة ما ويعطي للفرد إطارا للتوجيه وموضوعا للعبادة".[27]

يرى **فروم** أن الظاهرة الدينية كانت ولا تزال واحدة من أهم الروابط بين أفراد أي مجموعة وأي مجتمع، لذلك اعتبره إطارا للتوجه والإخلاص عند أي مجموعة، فالدين يحدد طبيعة العلاقة المشتركة للمنتمين لنفس التجمع أو الدين، وهذا إيحاء على أن الدين ليس مسالة طارئة ومستجدة، بل هو متجذر في تاريخ

الرحلة الإنسانية وخاصة بعد نشوء التجمعات والمجتمعات (منظومات دينية وبشرية) رافقت الإنسان لعدة أسباب منها: الخوف، الجهل، العامل النفسي، لذا فهو يرى أنه من الصعب عليه العيش بدون دين أو أي شيء يشبه الدين (الإلحاد، تقديس العلم)، فليست الإشكالية عند **فروم** في أي دين، بل في الأثر الذي تمارسه هذه الظاهرة الدينية على سلوك الإنسان، هل هي ظاهرة صحية أو غير صحية مرضية، "ليست المسألة هل الدين أم لا بل أي نوع من الدين، وهل هو دين يرقد نمو الإنسان، ويفتح قدراته الإنسانية، أم هو دين يشلها".[28]

ويرى **فروم** أنه من الممكن والشائع جدا وتحت تأثير الدين والعقائد أن يصاب مجتمع ما بعصاب أو مرض نفسي دون أن يشعر أفراده بذلك، فالمجتمع المريض يظن يقينا أنه بحالة طبيعية لدرجة أنه سيتصدى لكل من يحاول الخروج عن نمط حياته ويصفهم بالمرضى، ومثال **فروم** على ذلك: مقولة الأرض مسطحة مقولة منذ ملايين السنين، ومن يقول العكس في ذلك الزمن يهاجم كذا، فالإنسان المتكيف في مجتمع مريض هو بالضرورة إنسان مريض سواء اعترف أو لم يتعرف.[29]

كما قام **فروم** بتقسيم الأديان إلى دين إنساني، ودين تسلطي، فالأول يتمحور جوهر فكره حول الإنسان وقوته وقدرته على فهم نفسه وقوته الذاتية، وعلى تحصيل المعرفة، وتبين الحقيقة وأيضا من خلال السعي نحو السمو والتعالي الروحي ورؤية الدنيا بمنظار آخر، وبناء ذاته، وبناء قواه الشخصية، وطبعا كل هذه الأمور تمكنه من حب نفسه وغيره المختلف عنه، وتجعله يتعاون معه ويتضامن معه، فالدين الإنساني وفق رؤية **فروم** يركز على الإنسان وسعادته الداخلية، حيث يكون نابعا من العقل والقلب، وإلا له في هذا الدين هو انعكاس رمز على قدرات وغايات الإنسان السامية التي يحاول الوصول إليها من خلال حياته ومثاله على ذلك الديانة البوذية بسبب أنها لا تحوي مفهوم ميتافيزيقي لله، مثل بقية الأديان.[30]

أما الدين التسلطي فيقوم أساسا على إخضاع الإنسان وإذلاله بكل أريحية، يمارس سلطة عليه تجعله خاضع يتقبل العبودية، فتصبح الفضيلة الطاعة العمياء، والخطيئة الكبرى هي العصيان والتمرد أو مجرد التفكير في إنسانية هذا الدين، هذه الأديان أوجدت عاملا نفسيا خطيرا داخل الفرد حيث وجد نفسه أمام فكرة الإله المطلق الكامل الكلي تقريبا لا شيء، استصغر نفسه فأصبح يعيش بعقد النقص، وتافه وعاجز أمام هذا الإله أو كما وصفه **فروم** الإنسان المهان بإنسانيته صار يوجد مبررات عقلية لنفسه وجماعته ليوهم نفسه أنه يعيش حالة عادية إنسان سوي غير مريض.

كما يشير **فروم** إلى كون الدين التسلطي ذو وجهان: ما وراء سماوي (الأديان السماوية التوحيدية)، وأرضي دنيوي (يحول الدولة، العرق، الأيديولوجيا السياسية إلى الألوهية إلى المعبود) يسلم له الإنسان بكل شيء.[31]

لذا يرى **فروم** أن كلا الوجهان يسلبان إرادة الإنسان ويحطان من قيمته وينشران ثقافة الخنوع وإنكار الذات من أجل الآلهة، الماورائية لذا فإن هذه الأديان مسؤولة عن نشر بذور التعصب والأحقاد لدى الإنسان.[32]

في حين وبالمقابل يرى **فروم** أن الأديان الإنسانية تتكلم باسم العقل والقلب بعيدا عن القوى الغيبية الماورائية وأن الضمير الموجود داخل هذه الأديان الإنسانية هو ليس ضمير عنصري، انتقائي، أو صوت الله أو صوت الكنيسة أو صوت المعبد كما تقول الأديان التسلطية. بل هو صوت الإنسان الداخلي الذي يصوب أعمالنا وتوجيهاتنا من منطلق إنسان بحت يتعلق بحياتنا وسلوكنا وتعاملنا مع الآخرين، وليس من منطلق غيبي (الأديان التسلطية) الثواب والعقاب، الجنة والنار، حيث أن أسوأ ما أنتجته الأديان التسلطية هي فكرة الحياة وما بعد الموت وفكرة الثواب والآخرة التي حولت الإنسان في الدنيا لمجرد منتظر لهذا الحساب.[33]

كما أشار **فروم** إلى الإشكالية المعاصرة وهي (الدين والإنسان) وكيف أن التقدم التكنولوجي وعصر السرعة التي هي من فعل الإنسان حولته إلى مستهلك وأضاعت قيمته حيث أصبحت قيمة الإنسان تحدد فقط بالتجارة وتحقيق الأرباح، والنجاح، وشبه **فروم** هذا الأمر كمثل الردة إلى الوثنية وهذهالأمور كلها أدخلته بحالة من الصراع النفسي الداخلي وأوصلته إلى مفهوم

الاغتراب عن نفسه في هذا العالم بتحوله لمجرد مستهلك، وبالتالي أنتجت كل تلك الشكوك الاضطرابات والقلق الوجودي الذي دفعا بالكثير من الناس للعودة إلى الإيمان باالدين ليس عن اقتناع وإيمان بل هربا من دوامة الشكل الذي لا يطاق إلى الراحة النفسية. لذلك اكد **فروم** بأن معتقدات الإنسان ليست نابعة منه عن اقتناع عقلي، بل نابعة من عاطفة غريزية حيوانية للاحتماء بدفء القطيع، حتى ولو كان على حساب عقله ومنطقه والمثل الإنسانية العليا.(34)

خاتمة

نخلص في ختام هذه الورقة البحثية الى إن حل هذه المشكلة يكون بالعودة لجوهر الإنسان من خلال الاهتمام بقواه الذاتية وتنمية الحس الداخلي لديه والاهتمام بمثله العليا الداخلية ليستعيد بعض قيمه التي خسرها بفعل الآلهة والخضوع الذي مورسا عليه من قبل الأديان التسلطية والتي خسر جزء كبيرا منها أيضا بفعل التقنية الحديثة.

وأجمل استنتاج يمكن أننقدمه في الأخير أن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون دين.يحتويه وينظم قيمه، ويحدد أطره الحياتية على اسس ثابتة متوازنة تضمن له العيش دون شعور بالضياع ولا القلق ازاء الكون وحركته.

5. قائمة المراجع:

1- آيزنك هانس رغن، أفول إمبراطوري فرويد (أفول الإمبراطورية الفر ويدية)، ترجمة يوسف قريمي، طهران، منشورات سمت، ط1، 2000، ص215.

2- سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط4، ص22.

3- سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1973، ص44.

4- ينظر إيرك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، الإسكندرية، مصر، ط1، 2003، ص14.

5- المرجع نفسه، ص16.

6- عبد الفتاح حنوم، الدين عند سيغموند فرويد، مجلة أنفاس (فلسفة وتربية)، ديسمبر 2016، ص03.

7- سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1979، ص20.

8- المرجع نفسه، ص34.

9- مسعود أذربيجاني، علم النفس الدين، مجلة الاستغراب، 2016، ص07.

10- سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط4، 1984، ص66.

11- سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ص20.

12- عبد الفتاح حنوم، الدين عند سيغموند فرويد، ص07.

13- سيغموند فرويد، الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط4، ص11.

14- المرجع نفسه، ص173.

15- سيغموند فرويد، الطوطم والحرام، ص173.

*- كارل غوستاف يونغ: (1875-1961)، خلف العديد من الآثار تحدث فيها عن الدين: علم النفس والدين (1938)، بارسلسيكا (1942)، علم النفس والخيمياء (1944)، جواب أيوب (1952)، أربعة نماذج مثالية الروح والمخاد وأيون (1951)، المعالجة بالتحليل النفسي (1957).

16- كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط2، 1997، ص23-24.

17- المرجع نفسه، ص25-26-29.

18- ينظر مسعود أذربيجان، مقال علم نفس الدين –قراءة تحليلية في تنظيرات فرويد ويونغ، مجلة الاستغراب، 2016، ص77-79.

19- المرجع نفسه، ص78-79-80.

20- كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ص28.

21- المرجع نفسه، ص34-35.

22- كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ص07-33-132-238.

23- كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ص07-33-132-238.

24- المرجع نفسه، ص203.

25- المرجع نفسه، ص221.

26- إيريك فروم، بحث في سيكولوجية الأخلاق، ترجمة محمود منقد الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2006، ص56-65.

27- إيريك فروم، الجين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، دار غريب للطباعة، القاهرة، ص25-29.

28- المرجع نفسه، ص90-91.

29- المرجع نفسه، ص51-52.

30- المرجع نفسه، ص37-40.

31- المرجع نفسه، ص36-37-51.

32- المرجع نفسه، ص42-50

33- المرجع نفسه، ص48.

34- المرجع نفسه، ص49-50-54-55.